مراجعةُ كتابِ لا إلـه إلَّا الله عقيدةٌ وشريعةٌ ومنهجُ حياةٍ

الشيخ/ مُحمد قُطب رحمه الله

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، أمَّا بعد، فهذه مراجعة سريعة لكتاب "لا إله إلَّا الله عقيدة وشريعة ومنهج حياة" لأستاذ الجيل الشيخ محمد قطب رحمه الله، وتنبني محاور هذه المراجعة على عدة محاور، ألَا وهي:

- التعريف بالمؤلف رحمهُ الله في نُبذة مختصرة.
- بيان منهج المؤلف رحمهُ الله في الكتاب الذي بين أيدينا.
- استعراض للأفكار العامة التي رمى إليها الشيخ رحمهُ الله.
- عرض مُختصر لفصول الكتاب تباعًا، مع الوقوف على المستفاد من كل فصل.
- ذكر أهم الفوائد التي انتفعت بها من هذا الكتاب القيِّم.

التعريف بالمؤلف رحمه الله: -

هو الشيخ محمد قطب إبراهيم حسن شاذلي، شقيق سيد قطب -رحمهما الله-، ويُعتبر الشيخ محمد قطب مرجعًا لكثير من الحركات الإسلامية المعاصرة، فقد ألَّف رحمه الله العديد من الكتب التي تُؤسس لوعي إسلامي معاصر يقف سدًا منيعًا في وجه التيارات العلمانية الغاشمة التي اجتاحت جُل بلاد المسلمين.

واهتم الشيخ محمد قطب في مؤلفاته بالتركيز على مفهوم التوحيد وتحقيقه في أرض الواقع، وأهمية الحكم بما أنزل الله وعدم القبول بما سواه، وأنَّ كل ما سواه هو جاهلية لا قيمة لها في نظر المسلم الموحد، مع التوعية بمخاطر تلك الجاهلية، وأثرها على ضياع الأُمَّة. وبعد نفي الشيخ إلى بلاد الحرمين، عقب إعدام شقيقه سيّد -رحمه الله-، أسس الشيخ هناك ما يُشبه بالمدرسة الفكرية في مختلف الجامعات هُناك، وتتلمذ علي يديه عدد كبير من طلبة العلم، وتأثروا بأفكاره التي تُعد فريدةً في هذا العصر.


ومن أبرز مؤلفات الشيخ محمد قطب:



- جاهلية القرن العشرين.
- مذاهب فكرية معاصرة.
- الإنسان بين المادية والإسلام.
- التطور والثبات في الحياة البشرية.
- لا إله إلَّا الله عقيدة وشريعة ومنهج حياة "وهو الذي بين أيدينا".

منهج الشيخ في كتاب لا إله إلَّا الله: -

بدأ الشيخ محمد قطب كتابه بالحديث عن دعوة الأنبياء جميعًا إلى أقوامهم وأنها دعوة واحدة وهي دعوة التوحيد أن لا إله إلَّا الله، مع سرد عدد من الآيات التي توضح ذلك، واستعراض ردود الأقوام على أنبيائهم، وأنَّهم وإن كانوا لا يُنكرون وجود الخالق جل وعلا، إلَّا أنهم أَبَوا الانصياع لحُكمه وتشريعه الذي به يُخلصون العبادة لله وحده دون ما سواه من آلهتهم التي اتخذوها.

ثم انتقل الشيخ للحديث عن معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وتحقيقها على أرض الواقع، لا اعتبارها مُجرد كلمة تُنطق بالألسن فقط! بل هي شهادة لها لوازم وتقتضي عدة أمور يجب الالتزام بها وإلَّا تُعتبر الشهادة لاغية لا قيمة لها عند صاحبها؛ مادام لم يؤد حقها، وأمور أخرى يلتزم بها المرءُ بناءًا على تلك الشهادة، وإن كان الإخلال بها لا ينفي أصل الشهادة عن صاحبها، إلَّا أن هذا الإخلال هو علامة على ضياع الهوية الإسلامية والتأثر بالواقع الجاهلي المُحيط بالأمة من كل جانب.

وأعقب ذلك تفصيل الشيخ لمقتضيات لا إله إلَّا الله ولوازمها، وبيان أثر غيابها على الأُمَّة كما هو واقعُ الآن، فبدأ بالمقتضى الإيماني، فالتعبُّدي، فالتشريعي، مع اعتبار أن الإخلال بواحدٍ من هؤلاء يكفي لنقض كلمة التوحيد، دون غيرهم من المقتضيات الأُخرى كالمقتضى الفكري، والحضاري والتعبيري، والأخلاقي.

ثم ذكر الشيخ بعضًا من الانحرافات التي غيَّرت من مفهوم لا إله إلَّا الله عند المسلمين على مر القرون، وإن كان أولها هو الفكر الإرجائي، الذي يُبيح نقض المقتضيات اللازمة لصحة الشهادة مع الإبقاء على صحتها! وتدرج الاستبداد السياسي عقب انقطاع الخلافة إلى زمننا هذا، مع تضييق مستمر لدائرة الدين وإخراجها من نطاق الحكم، إلى أن صارت في زماننا هذا ما بين المقتضى الإيماني والمقتضى التعبدي فقط، مع خلل فاضح في كليهما، وذكر الشيخ قبسًا من الأمور التي تنقض لا إله إلَّا الله وتُخرج صاحبها من الدين كله.

واختتم الكتاب بتوجيه بعض الإرشادات والنصائح للصحوة الإسلامية لتحديد هدفها بدقة أكثر، حتى تُحقق أكبر نفع ممكن وفي أسرع وقت لانتشال الأمة من براثن الشرك المحيط بها من جميع النواحي.

الأفكار العامة التي رمى إليها الشيخ:

- دعوة التوحيد لا إله إلا الله، وبيان معناها.
- إبراز أهمية مقتضيات لا إله إلَّا الله وأثرها على المجتمع.
- التحذير من الفكر الإرجائي وخطره على الأمة الإسلامية.
- نواقض التوحيد، وآفة عصر التحديث "التشريع من دون الله".
- توجيه الصحوة الإسلامية للبدء بمقتضيات لا إله إلَّا الله وتوعية الناس بها.

عرض مُختصر لفصول الكتاب: -

نستعرض في السطور التالية فصول الكتاب فصلًا فصلًا باختصار، لبيان مُراد المؤلف -رحمه الله- منه.

تمهيد...

افتتح الشيخ رحمه الله كتابه بالحديث عن مدلول "لا إله إلا الله"، وغيابها عن المجتمع المسلم المعاصر، مع إسقاط الضوء على شباب الدعوة الإسلامية -المُتعجِّل في الخير- وقصور رؤيتهم على الرغم من صحة الهدف الذي يسعون إليه، فكثير من الشباب يبدأ أول ما يُنادى بتحكيم الشريعة -وهو أمرٌ واجب- ولكن هل حقًّا هذا فقط ما سيكفي الناس ويُصلح من حالهم، وينتشلهم من مستنقعات الشرك التي وقعوا أو أوشكوا على الوقوع فيها!

كيف أصلًا سيتقبل العوام من المسلمين المعاصرين أحكام الشريعة وهم لا يعرفون لا إله إلَّا الله التي يُبنى عليها كل حكمٍ من أحكام الشريعة؟ ولذا لا بُدَّ من بيان مفهوم كلمة التوحيد الذي يجب على المسلم معرفته والعيش تحت ظِلِّه دون ما سواه من الشعارات التي تخطف الناسَ خطفًا من دين الله كالقومية والوطنية وغيرهما مما عمت به البلوى.

إنَّ غياب تحكيم الشريعة هو الآفة الكُبرى في زمننا نعم ولا شك، ولكن لا يعني هذا أن يكون خطاب الدعوة محصورًا في هذه النُقطة وحدها -رغم عظم قدرها- طالما أنَّ الناس أصلًا يستقون أفكارهم وتصوراتهم عن الحياة من مرجعية أُخرى بشرية متغافلين عن المرجعية المطلقة للمسلم التي ليس فوقها مرجعية، ألا وهي لا إله إلا الله، التي لا تنفصل إطلاقًا عن أي جانب من جوانب الحياة كما سيتضح ذلك عند الحديث عن مقتضيات لا إله إلا الله.

ولسنا كذلك نحصر الدعوة في التعريف بلا إله إلَّا الله ومقتضياتها، وإنما نقول أنها لا بد وأن تكون اللبِنة التي يُبنى عليها كل شيء بعد ذلك، فهي العقيدة الصلبة القادرة وحده على القضاء على كل الدعوات والعقائد الباطلة في سبيل الخلافة وإقامة دين الله في أرضه، وتعبيد الناس لربهم.

وبعد ترسيخ هذه العقيدة الصلبة، والتعرف على أصولها، يكون الانتقال لمرحلة التطبيق العملي، والتي لا تخرج أيضًا عن إطار لا إله إلَّا الله التي حُصِر فيها كل شيء؛ قال تعالى: "قُل إنَّ صَلَاتِي ونُسُكِي وَمَحْيَايَ ومَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وبِذَلِكَ أُمرت".

دعوة التوحيد... لا إله إلا الله

إنَّ دعوة التوحيد هي ما أرسل الله تعالى به رُسُله لكل الناس على مر الأزمان "أَنْ اعبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إله غَيْرُه" وقد كانوا يُؤمنون بوجود الله كما جاء في كتاب الله تعالى في غير موضع، إلَّا أنهم لم يرضوا به إلهاً واحدًا يعبدونه لا شريك له، وإنما أشركوا معه آلهة أُخرى يعبدونها، يعتقدون لها الضر والنفع، يعتقدون لها التصرف في ملكوت الملك جل جلاله.

والله سبحانه وتعالى قد خلق الناس كافة على الفطرة؛ فطرة الإسلام كما قال النبي ﷺ: " ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمجسانه"، وقد وهب الله كل نفس فُجورها وتقواها، فلكل نفس الاختيار في الانحراف عن التوحيد أو الاستقامة عليه، لا كما يدعي البعض خلاف ذلك وينسب الظلم لله تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

ولأن دعوة التوحيد غير قاصرة على جانب واحد فقط من جوانب الحياة، وإنما هي متُعددة شاملة لكل نواحي الحياة؛ نرى في كتاب الله تعالى اقترانها بالفساد الخُلُقي الذي وصل له قوم لوط والفساد النفسي الذي صار له حال قوم عاد من اعتزازهم بقوتهم وتجبرهم في الأرض، والفساد الاقتصادي الذي طغا في نفوس أصحاب الأيكة؛ فأرسل الله لكل قوم من هؤلاء رسولًا منهم يدعوهم لعبادته وحده لا شريك له، مع توجيهم لإصلاح جوانب الفساد التي انتشرت بينهم.

ولذلك نقول أن دعوى حصر لا إله إلَّا الله في الجانب التعبدي الشعائري وحده هي دعوي قاصرة باطلة، فما لهذا وحده أُرسل الرُسل، ولا مكان لمثل تلك الدعاوى في المجتمع المسلم، وما نُلاحظه من مقارنة قصص الأنبياء الواردة في القرآن مع أقوامهم، أنَّ حال الجاهلية لا ينفك يتصدى للإسلام بكل ما أوتي من قوة ويمنعه من التدخل في الشؤون "الدنيوية" كالاقتصاد، والسياسة، والحكم، ونمط الحياة، وهيئة المجتمع ونحو ذلك، ألا يعقلون "قُل إنَّ صَلَاتِي ونُسُكِي وَمَحْيَايَ ومَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ"؟!

ألا يعقلون أن الله الذي خلقهم -وأقروا له بذلك- هو مَلِكُهم الذي يجب عليهم الخضوع له ولحكمه في كل نواحي حياتهم التي ما منحهم إيَّاها إلّا ليعبدوه؟ ألا كيف يُشركون به ما لا يملك لنفسه حتَّى ضرًا ولا نفعًا؟ ألا كيف يمنحون أنفسهم حق الاحتكام لأهوائهم وأعرافهم وتقاليدهم وجعلها فوق شرع المِلك جل جلاله؟

ألا إنما هو الهوى، قال تعالى: "فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُم وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي القَومَ الظَّالِمِينْ"

فمع بلوغ الرسالة إليهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، أبوا الانقياد وتمنَّعوا على ربهم أن يطيعوه، وما كان ذلك إلّا اتباعًا لهوى النفس وتقديمه على الهدى الذي جاءهم من عند بارئهم.

"أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيهِ وَكِيلًا؟"

إنَّ كل من يُقدّم هواهُ على تشريعاتِ اللهِ وأحكامهِ، ويجعله هو مرجعيته المطلقة التي يُحاكم إليها كل صغيرة وكبيرة في حياته عِوضًا عما أمره الله به، فإنما هو عابد لهواه لا لله، وإن قال لا إله إلا الله.

فالتوجيهات التي جاء بها الأنبياء من عند الله كلها تهدف إلى إقامة أمة ربانية عابدة لله تعالى، مُحتكمه لحُكْمه في كل جوانب حياتها، أمة لا يعلوا فيها رابطٌ فوق رابط العقيدة أن لا إله إلا الله، فمن وافق رابطنا واليناه وإلّا تبرأنا إلى الله منه، فهي ليست مُجرد توجيهات إصلاحية من باب النصيحة أو التخيير، وإنما هي أوامر إلزامية من الملِك، يحتكم إليها الخلق في كل صغيرة وكبيرة من تفاصيل حياتهم التي يحيون فيها عابدين لربهم مُحلّين ما أحل مُحرِّمين ما حرم، مُتبعين لأوامره مُجتنبين لنواهيه.

وقد جاءت دعوة التوحيد تدريجية مع مراحل تطور الحياة البشرية، يأتي كل نبي أو رسول مكملًا لدعوة من قبله، مُصححا لما وقع فيه قومه من أخطاء في أي جانب من جوانب الحياة لا جانب الإيمان أو التعبُّد الشعائري فقط، إلى أن جاء ختام تلك الدعوة بمحمد ﷺ، الذي جاء لينشأ أمة قائمة في الأرض إلى قيام الساعة، وقد كَمُلَت لديهم دعوة التوحيد بالقرآن والسنة، اللذان شملا كل جوانب الحياة، ولم تنفصل تشريعاتهما عن أي وجه من أوجهها، كيف لا وهي شرائع العليم الخبير.

ومما سبق بيانه يُمكن أن نختصر معنى لا إله إلّا الله بأنها دعوة إلى عبادة الله وحدة لا شريك له، والالتزام بكل ما جاء من عنده على لسان نبيه محمد ﷺ، والذي أتاه من ربه التشريعات الشاملة التي تُلخّص حياة المرء في قوله تعالى: "قُل إِنَّ صَلَاتِي ونُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وبِذَلِكَ أُمِرت"، وهو ما يدفعنا للحديث عن مقتضيات لا إله إلا الله.

إنّ المرء عندما يعتقد بوحدانية الله تعالى وينطق بالشهادة، فهو كأنما يوقّع عقدًا، ولا بُد لهذا العقد من بنود، ألا وهي مقتضيات لا إله إلا الله، أي الأمور التي يُلزم المرءُ بها نفسه بمجرد نطقه بالشهادة، لا لحاجة الله لذلك -تعالى عن ذلك علواً كبيراً- وإنما لحاجة المرء نفسه إلى الله، لحاجته للفوز برضا ربه ودخول جنته، ونيل الدرجات العُلى.

وكما أسلفنا أن لا إله إلّا الله شاملة لكافة تفاصيل الحياة صغيرها وكبيرها، لا يخرج عنها شيءٌ مهما اختلف الأزمنة والأمكنة، فكان لزامًا أن يعلم الناس ما هي لوازم تلك الكلمة التي قالوها وعاهدوا الله على الوفاء بها.

وعدّ الشيخ رحمه الله من المقتضيات لكلمة التوحيد سبع مقتضيات ارتأى أنها شملت كل نواحي الحياة، ولعل هُناك من المقتضيات غيرها، إلّا أنها غالبًا داخلة تحت أي واحدة من تلك السبع: الإيماني، التعبدي، التشريعي، الأخلاقي، الفكري، الحضاري، التعبيري.

ولأن أمة محمد هي الحاملة لآخر الرسالات؛ الرسالة الجامعة المكملة لما قبلها، فكان لا بُد من غرس مفهوم لا إله إلّا الله في النفوس غرسًا عميقًا، لا يُصاحبه شكٌ أو اضطراب.

فمرة يعرض الله -سبحانه وتعالى- لنا الآيات الدالة على قدرته وعظمته، ويأمرنا بالنظر والتدبر في خلقه وملكوته، وأن هذا لا يُمكن أن يكون خُلِق من عبث كما يُردد البعض، ومرة بعرض مشاهد القيامة وما فيها تبشيرًا للطائعين، وإنذارًا للعُصاة، وتارة ببيان نصر الله تعالى لأنبيائه على أقوامهم الذين عاندوا دعوتهم وحاربوها، وأُخرى بالحديث عن علم الله المحيط بالغيب، وتارة مُحذرًا لنا من خُطى الشيطان، وتارة بعرض أسمائه الحسنى وصفاته العُلى.

كل هذا بالنظر والتفكر فيه يُكسب النفس خشية الله والانقياد لأمره جل وعلا، ويُكسب النفس أيضًا إدراكًا حقيقيًا بواقعهم الذي يحيوه أنهم مِلكٌ لله تعالى، هو ربهم وهم عباده، ما خلقهم إلا ليعبدوه وحده لا يُشركون به شيئًا، فنشأ عن ذلك على يدي النبي ﷺ جيل فريد من نوعه، لا يفكر أصلًا -كمجموعة- في تقديم هوىً في نفسه على أمر ربه، فما بالُنا!

ويجب العلم أن مقتضيات لا إله إلّا الله بعضها مركبٌ على بعض، لا يتفرد أحدها عن الآخر ولا تُؤخذُ كلها جملةً واحدة، وإنما يتدرج بها المرء، فباستقرار الإيمان في قلبه، يبدأ في أداء الشعائر التعبدية -وإلا لا قيمة لها دون إيمان-، ويلتزمُ بما شرع الله له من حلالٍ وحرامٍ، ولو التزم ذلك أفراد مجتمعٍ فيما بينهم،

لتكونت لديهم الروابط الاجتماعية في ضوء الإسلام، ولأنشأوا في أرض الله حضارة وفقه منهجه -جل وعلا- لا تعلوها حضارة، والتاريخ على ذلك شاهد.

ونُلاحظ الأولوية في تحقيق مقتضيات لا إله إلَّا الله في طريقة تعامل النبي ﷺ مع قومه، فلم يبدأ لديهم بإصلاح الروابط الاجتماعية (فرقة القبائل وتناحرها، واستعباد الضعفاء...)، ولا بالإصلاح الأخلاقي (الخمر والميسر والفواحش المعلنة) وإنما بدأ أول ما بدأ بالمقتضى الإيماني، أن قولوا لا إله إلَّا الله تُفلحوا، ومن سبق وآمن معه انتقل إلى المرحلة الثانية وهي أداء الشعائر، ولما ثبت الإيمان أكثر وأكثر، جاء دور التشريعات المُنظمة لنواحي الحياة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية وغير ذلك.

ولذا فإن أول ما نبدأ به مستعينين بالله تعالى، هو المقتضى الإيماني.

أولًا: المقتضى الإيماني

هو حجر الأساس الذي يُبدأُ به بناء الإنسان المسلم، وبه يُنتشل المشرك من مستنقعات الشرك، فإذا آمن بالله تعالى إلهاً وعرفه حق المعرفة، وأدرك أنه بيده الضر والنفع، لا بيد غيره، وجد أنه حقًا مستغنٍ عن كل ما سواه، فما الحاجة لضعيفٍ ومعك القوي، وما الحاجة لفقيرٍ ومعك الغني، ما الحاجة لمخلوقٍ ومعك خالقه؟!

فأنت عندما تُؤمن بالله حق الإيمان، وتُقر له بالوحدانية وتدبير الأمر، وتعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، لا يكون حالك كما هو حال من أنكر ذلك، فهو تائهٌ لا يدري ما يُفعل به، لا يدري هل ما أصابه خيرٌ أم شر، يتساءل كيف جئتُ وإلى أين أذهب بعد موتي، لا يجد أمامه غير: لا أدري!

فمن ضاع إيمانه لا يدري لحياته معنًا يحياها به، وكيف يدري وقد استغنى عن خالقه واتبع هواه واستنكف أن يعبده كما أمره، أيُّ مجنونٍ هو أن يظن أنه بذلك رابحٌ عندما يحيا حياة فانية، يقضي فيها شهواته ويتبع هوى نفسه، أيُّ مستكبرٍ طاغٍ هو عندما يجعل محور الحياة هو نفسه، ولا سعي له إلّا لتحقيق كل ما يُمكن من المتعة في حياته البائسة بعيدًا عن ربه، في غفلة عن آخرته منكرًا لها أصلًا.

أما من آمن بما جاء في حديث جبريل عن الإيمان: قال: "ما الإيمان؟" قال ﷺ: "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره"، فيحيا حياةً لها معنى حقيقي، يُدرك أن ما يقع له من أمور في تلك الدنيا -دار البلاء- هي بأمر الله وحده، يؤمن أن أمره كله له خير فإن أصابته سراء شكر ربه عليها، وإن أصابته ضراء صبر عالمًا أنها بأمر ربه محتسباً ثواب صبره عند ربه.

والدنيا ما هي إلا دار بلاء جعلها الله متاحة للفريقين: المؤمن والكافر، ولكلٍ منهما حرية الاختيار، أيلتهي بالدنيا عن الآخرة، أم يُجاهد نفسه طمعًا في آخرته واضعًا الدنيا تحت قدميه لا يأبه بها، وقد علم أنها بلاؤه الذي لو ركن إليه، أضاع آخرته.

ففريق الكفر الذي اختار أن يحيا لدنياه فقط، لا يُلقي بالًا لآخرته يُعطى جزاء ما يصدر عنه من أمر حسنٍ في الدنيا، ولا يبقى له عند الله شيئًا في الآخرة إلا النار، قال تعالى: "مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُوْلَائِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الْأَخِرَةِ إِلَاّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ"

وللأسف في زمننا الذي نحياه، لمَّا حدث خلل في المقتضى الإيماني وصار الناس مفتونين بالغرب (الكافر) وما وصل له من إنجازات علمية وابتكارات حديثة، ازداد ذلك الخلل أكثر، وأصبح الناس في شك من دينهم هل لا إله إلَّا الله هي سبب تخلفهم؟ هل بدونها يُمكن أن يعيشوا كما يعيش هؤلاء في الغرب؟ هم فقط نسوا شيئًا واحدًا، أنهم في هذا الطريق يلقون بآخرتهم بعيدًا ويعيشون لدنياهم فقط، إذ أن معيار النجاح عندهم تبدل، إذ كان في أول الأمر معلومًا لديهم أن المعيار أُخروي، فمن دخل الجنة فهو الفائز، ومن أُلقي في النار هو الخاسر، وصار الأمر ماديًا دنيويًا فقط. تزعزع الإيمان بالغيب من نفوسهم، لا يرون في أنفسهم سوى رغبةً في تحقيق إنجازات دنيوية فقط، قال تعالى: "يعلمُونَ ظَاهرا من الْحَيَاة الدُّنْيَا وهم عَن الْآخِرَة هم غافلون"

وآفةُ زمننا في المقتضى الإيماني لدى أغلب المنسبين للإسلام هي ضعف الإيمان بالقدر وباليوم الآخر، فلا يحمدون على مُصاب، ولا يصبرون على بلاء، تاركين أجزل ثواب.

ثانيًا: المقتضى التعبدي

لا إله إلَّا الله تقتضي توجيه كل ألوان العبادة لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له في عبادته، فبعد أن عرفنا الله -وقد فطرنا على ذلك- وآمنّا به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، صار حتمًا علينا نُفرده بالعبادة، فما هي العبادة؟ هي اسمٌ جامعٌ لكل ما يُحبه الله ويرضاه، لا تقتصر على عبادات القلوب وحدها أو عبادات الجوارح وحدها، وإنما تشملهما جميعًا.

بل وحتى حُكم الناس بشرع الله تعالى في مختلف أمور حياتهم عبادة، فتطبيع شرع الله في السياسة عبادة، وفي الاقتصاد عبادة، وفي كل أمرٍ يفعله المسلم مرضاةً للهِ واستسلامًا لأمرهِ فهو عبادة.

ودومًا ما يقترن الواقع الجاهلي بصرف شيء -على الأقل- من العبادة لغير الله، فهُناك من يُعظمون أُناسًا أو حتى أصناماً، ويُعلون خشيتهم على خشية الله، ويُحبونهم كحب الله أو أشد حبًا، وهُناك من يعبدون أهوائهم من دون الله ويسعون وراء تحقيق رغباتهم الفاسدة التي طغت عليها شهواتهم "الحيوانية".

إذن فليس بالضرورة أن يكون المعبود من دون الله محسوسًا كالأصنام، وإنما الأمر أوسع من ذلك بكثير، فمن يدينون بأديان بشرية كالديموقراطية، والليبرالية، والقومية، والوطنية، وغير لك من أوثان العصر على مختلف أنواعها وتوجهاتها؛ هي ليست أوثانًا محسوسة، ولكنها عبارة عن أفكار بشرية وضيعة، وهي محض زُبَالَة الأذهان، تراهُم يُعْلُون قِيَمِهَا على قيم شرع الله، يُحاكمون إليها كل أمور حياتهم، كأنها هي خالقهم ورازقهم، رغم أنهم هم أنفسهم صانعوها. هم في الحقيقة لا يختلفون قدر أُنمُلَةٍ عن عُبَّاد الأصنام والقبور، وإن قالوا كما جاء في القرآن: "مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى".

ومن أمثلة شمول المقتضى التعبدي لكل نواحي الحياة، ما قاله ﷺ: "إن في بضع أحدكم صدقة" – قيل يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر".

ثالثًا: المقتضى التشريعي

الله سبحانه وتعالى لَمَّا أرسل الرسل، ما أرسلهم فقط ليتوجه الناس بالشعائر التعبدية لله، بل أرسلهم لما هو أشمل من ذلك، فأنزل لهم شرائع وأحكام مُنظِّمة لكل مجالات الحياة وشؤونها، وقد كانت كل الشرائع التي جاء بها رُسل الإسلام قبل محمد ﷺ، إنما هي شرائع مؤقتة لأقوامٍ مخصوصين، أمَّا شريعة محمد ﷺ، فهي عامة لكل الخلق في كل زمان ومكان إلى قيام الساعة، قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ"

وقد ألمح الشيخ رحمه الله إلى آيتين من كتاب الله، ذُكِر فيهما جذور الشرك، وهما:

١- قوله تعالى: "أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجابٌ"

٢- قوله تعالى: "وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ..."

فيتضح لنا في هاتين الآيتين أنّ جذور الشرك هي: إنكار وحدانية الله تعالى، صرف العبادة لغير الله، التحليل والتحريم من دون الله تحاكمًا لشرع غيره.

ولما جاء الإسلام قضى على جذور الشرك تلك، وظل المسلمون -كمجتمع- طوال ١٣ قرن محافظين على أصول الإيمان المقابلة لأصول الكفر تلك، مقرين بوحدانية الله تعالى، عابدين له وحده، محتكمين لشرعه لا ما سواه من الشرائع الوضعية.

ولما بدأ إدخال القوانين الوضعية صراحةً -أواخر الدولة العثمانية- بدأ جانب التشريع والتحاكم في التدرج نحو الهاوية حتى زال كليًّا في زمننا هذا، فالشرائع يضعها البشر للبشر، يُبدلونها كل حين وفق أهوائهم الفاسدة، لا يُحكّمِون شرع الله في قليل ولا في كثير، وقُد عُلم بالاضطرار من دين الله أن التشريع من دون الله وإرادة التحاكم لغير شرعه مع وجوده، إنما هو خروج عن الملة.

قال تعالى: "أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ"

قال تعالى: "أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ"

قال تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً"

قال تعالى: "فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً"

قال تعالى: "... إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ"

وغير ذلك الكثير...

إن الحكم في الدنيا على قسمين، لا ثالث لهما: إمَّا حكم الله سبحانه وتعالى، وإمَّا حكم الجاهلية، إما الحكم بما أنزل الله، وإما الحكم بغير ما أنزل الله، أما هؤلاء الذين يُشرِّعون القوانين من دون الله فحالهم واضحٌ بينٌ، أنَّهم جعلوا أنفسهم شركاء لله سبحانه وتعالى في مُلكِهِ وتشريعه، كيف سولت لهم أنفسهم أن يُنازعوا ربهم في حقه الخالص في التشريع؟ ألا يعلمون أنه هو الذي له الخلق والأمر؟ هو الذي يُحل ما يشاء ويُحرم ما يشاء، كيف يأتي هؤلاء ويُعدّلون على شريعة الرحمن ويقولون هذا حلالٌ وهذا حرام! ما بال هؤلاء، "أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ"

ويزعم البعض زعمًا فاسدًا أن سبب انحدار الأُمَّة وتخلفها هو التمسك بالشرع -أو قُل ما أبقوا للناس منه- ويدعون أن الغرب ما تقدّم إلا لتحرره من "عقدة الدين" وتوجهه للعلمانية، وصاروا هم الذين يُشرعون القوانين ويقضون بها بين الناس، أهذا ما يُريد العلمانيون أن نصل إليه؟!

يريدون أن نحتكم إلى عقولنا القاصرة وأهوائنا الفاسدة، ونترك شرع اللطيف الخبير، أنحن أعلم بما يُصلحنا أم العليم الحكيم؟ والناظر في تاريخ الأمة يري أن ما تخلُّفها وتأخرها إلّا بسبب البُعد شيئًا فشيئًا عن الدين، والتنصل من أحكام الله والتفلُّت منها حتى آل الحال إلى ما نحن عليه.

وكذا الناظر المُدقق في حال الغرب، لا ينبهر بزخرفة التكنولوجيا التي وصلوا إليها، وإنما يري ما يعيشون فيه بسبب تلك التشريعات، من جرائم القتل والاغتصاب والتحرش والشذوذ التي لمّا وُضعت لها عقوبات ما أنزل الله بها من سلطان، لم يتمكنوا من ضبطها والسيطرة عليها، بل واضطروا إلى تقنين بعضها، أحقًا هم يملكون العقوبات الرادعة في تشريعاتهم؟ أم أن الذي خلق وبرى هو أدرى بما يُصلح عباده ويزجرهم عن الوقوع فيما حرم؟

يرى الناظر كذلك تشوه الفطرة الذي يعيشونه لما بعدوا عن أحكام الله وحكموا أهوائهم، فليس الأمر كما قال قائل أنّ عندهم "إسلامٌ بلا مُسلمين" فأي إسلام عندهم وهم أبعد ما يكون عن الفطرة أصلًا، أيُّ إسلامٍ عندهم برأسماليتهم التي يسحقون بها الفقراء بينما يزدادون هم ثروة ورفاهية.

وتلك النظرة القاصرة التي ينظر بها البعض للغرب على أن تقدمه بسبب الانسلاخ من الدين ما سببها إلّا كما ذكرنا سابقًا أن هؤلاء قد عميت قلوبهم عن هدفهم الفعلي في هذه الدنيا، فكان الافتتان بزخرف الدنيا مُشجعًا لهم على نبذ شريعة المنّان وكأنهم بغير خالق يحكمهم، أو بأنه خلقهم عبثًا، لا ليعبدوه ويُحكموا بشرعه فيما بينهم، دون الاكتراث بأمر الدنيا وزخرفها.

إنَّ هذه الشريعة الربانية تمتاز بالشمول والثّبات، فهي أتت شاملة لعظام ودقائق الأمور، ثابتة الأحكام والتوجيهات، على أن كل ما يستجد من أمر البشر يُرجع فيه إلى أصول وقواع ثابته في تلك الشريعة، فهي ليست عشوائية كشرائعهم، كلما جد عليهم جديدٌ غيّروا وبدّلوا، زاعمين في كل مرة أنهم أتوا بالأفضل وعليه المستقر، أنَّى لهم هذا!

والحاصل أن الله سبحانه وتعالى هو من له حق التشريع والتحليل والتحريم، وما نحن إلّا عباده، خلقنا فقراء إليه، مستغنين به عمّا سواه، لا نُشّرع من دونه أمرًا يُخالف ما أنزل -على رسوله ﷺ- من كتابٍ

وسُنَّة، فكيف تقول أن الله هو العليم الحكيم، ونأتي بعد ذلك نقول من عند أنفسنا هذا حلالٌ وهذا حرامٌ، كيف إذًا نُقرُّ لله -جل وعلا- بالعلم والحكمة؟

رابعًا: المقتضى الأخلاقي

أللأخلاق دخلٌ بالعقيدة؟ نعم، وكيف لا، فكما قُلنا إنّ كل شيءٍ مشمول ومُتضمن في ميثاق لا إله إلا الله، ولعلك تعلم حديث الرسول ﷺ: "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ لَمْ تَزَلْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ نِفَاقٍ، حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذِبَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ" أليست كل هذه صفات أخلاقية بتركها تتغير العقيدة؟ والله سبحانه وتعالى فطر الناس على خُلقٍ حسن، لا تُفسده إلا بيئة جاهلية غائبة عن توحيده والعمل بشرعه.

وإذا تأملنا في أول سورة أُنزلت، قول الله تعالى: "كَلَّا إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى أن رآه اسْتَغْنَى" أليست تلك الآتية تتحدث عن طغيان الإنسان واستغنائه عن ربه نتيجة طغيانه وإنكاره الرجوع إلى ربه في دارٍ آخرة، أليس الطغيان خُلقًا جاهلياً يُضاد الإسلام؟ وكذا ذُكر في نفس السورة خلق آخر وهو الكذب "أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى".

وانظر إلى مدح الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بأخلاقهم في صدر سورة المؤمنون، وفي أواخر سورة النور، وغير ذلك من المواضع في كتاب الله عز وجل التي فيها بيان منزلة الأخلاق وارتباطها بالعقيدة، فعقيدة المؤمن تُلزمه بأخلاق مُعينه وتُحرم عليه أخلاقًا أُخرى، بخلاف صاحب الهوى الذي لا يلتزم بأخلاقٍ معينة يتحكم بها في شهوات نفسه، التي ما خلقها الله وأوجدها في نفوسنا إلَّا لحكمه يعلمها سبحانه.

وفساد الأخلاق الدافع لانطلاق الشهوات في كل جانب وتتبع رغبات النفس دون ضوابط إنما هو سبب من أسباب ما نراه من طغيان الإنسان في الأرض وافتتانه بالمادة وتعظيمه لقدرها، فكلها -أي الرغبات- مردها إلى شهواتٍ انطلقت بغير كابح، فلم يُعرف لها حدود.

وبما أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق، وهو المُشرع "له الخلق والأمر" فكان لا بد أن يكون الاحتكام إلى الأخلاق التي أمر بها وفطر عليها النفس، وأنها هي السبيل لكبح شهوات النفس التي ركبها الله فينا، فهو العليم الخبير، الذي يعلم من أنفسنا ما لا نعلم، كيف لا وهو الخالق!

وأول ما يُربينا عليه الإسلام من أخلاقٍ، هو مطلق السمع والطاعة لله ولرسوله، وعدم تقديم غيرهما عليهما في السمع والطاعة، قال تعالى: "وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"

ولو تأملنا في نواحي الشرع المختلفة، من السياسة، والحرب، والاقتصاد، ونظام المجتمع، لوجدنا أن كلها مضبوطة بضوابط أخلاقية، تُحافظ على نزاهتها وصلاحها، ثُم بعد ذلك يدَّعون أن الحل في غير شرع الله!

خامسًا: المقتضى الفكري

إنّ للمسلم تصور خاص، وفكر خاص، ونظرة خاصة عن الحياة والكون وطبيعة الخلق، نمط فكر يمنحه الاستقرار، لا يعيش صراعات نفسية كما يعيشها غيره ممن أضله الله وختم على قلبه، فهو يعلم من الخالق، ولِم خلقه، وأنه سبحانه هو من سخر له الكون بما فيه.

وطبيعة التصور والفكر الإسلامي يتميز بأنه مُستمدٌ من وحي الخالق، من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، خلافًا للفكر الجاهلي الذي يُصور الحياة تصورات خرافية، بعضها مضحك وبعضها مثير للشفقة بالنسبة للمسلم الذي عرف ربه، وأقر له بالألوهية، وقطع على نفسه عهدًا بالسمع والطاعة.

فعند المسلم العلم الحتمي المستمد من الوحي، وهو قادرٌ على تفسير الظواهر الكونية في ضوء هذا المنظور الإسلامي الذي أكرمه الله به، فإذا علم المرءُ أن مردّ الأمر كله إلى الله، وأنه هو الملك المتصرف في خلقه كيف يشاء، وأن الله تعالى أمره بالتدبر في ملكوته، لا يقع فيما وقع فيه **الجاهليون** من اضطراب ونسبة الأمور للطبيعة على أنها هي المتصرفة في كل شيء ثم يقع في إشكالات لا يجد منها مخرجًا ليقول، إنها الطبيعة، ولكنها تخبط خبط عشواء! أوليس الله قد جعل من هذا آيات دالة على وجوده وحكمته وقدرته سبحانه وتعالى! "وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ • وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ • وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ • فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ"

إنَّ المسلمَ يضعُ كلَّ شيءٍ في ميزان الدنيا والآخرة، ميزان الحسنات والسيئات، ميزان ما يرضاه الله وما لا يرضاه، لا يعيش كالكفار الذين يحيون حياة الأنعام، لا همَّ لهم إلا قضاء شهواتهم وحاجاتهم في دنياهم الفانية.

إنَّ المسلم ليعلم علم اليقين أن الأرزاق بيد الله قسّمها بين عبادة بحكمته، ويعلم أن ما أصابه من بلاءٍ فهو بقدر الله، لا يقول كما يقول الكفار "مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ"، فيسخطون بكل مصاب حلّ بهم، هم أصلاً لا يدرون -أو يتغافلون- لماذا خُلِقوا.

إنَّ المسلم يتعامل مع نعم الله تعالى كالاكتشافات العلمية والاختراعات وغيرها بطريقة تختلف عن الكافر، فهو إنما يستخدمها لعمارة الأرض وتحقيق مقصود الخلافة في الأرض مُتعبدًا ربّه بذلك، لا يستخدم ما منَّ الله به عليه في معصيته تعالى، لا يصل لمرحلة الطغيان والاستغناء عن الله تعالى، ولا

تسول له نفسه أي شيءٍ من ذلك، ولو مسّه شيءٌ من ذلك فما أسرع عودته، قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ".

ومع انسحاق الهوية الذي يحياه كثير ممن انتسب للإسلام، ضاع التصور الإسلامي من أذهانهم، وصاروا يقيسون الأمور ويردُّونها إلى غير مردها الذي أمر الله به، فهم -بتبعيتهم لغير دين الله- أجَّرُوا عقولهم لغربٍ كافرٍ، قاسوا الأمور بمقاييسه **الجاهلية** وردُّوا الأمور لأفكاره الإلحادية المعادية لفكرة الدين عامة، وللإسلام خاصةً.

سادسًا: المقتضى الحضاري

هل الإسلام والحضارة لا يجتمعان كما يُردد ربائب الغرب؟ قطعًا لا، فبتحقيق المقتضى التشريعي وما يلحق به من لوازم أخلاقية واجتماعية وسياسية، ينشأ لدينا حضارة عظيمة، لا تسقط ما دامت طائعة لربها مؤيَّدة بنصر الملِك، والتاريخ يُكذِّب هؤلاء، بل يفضحهم هم وأربابهم من الغرب.

وقد دلت الأدلة من كتاب الله جل وعلا على أن الإنسان إنما هو مُستخلف في الأرض لعمارتها، وإقامة دين الله فيها، وما لغير هذا خلقه الله، قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً"، "هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا".

والإنسان بطبيعته مفطور على استغلال المقدرات بين يديه، حريص على الإنتاج والعمارة بمختلف أشكالها وأطوارها، وهذا واضحٌ جليٌ على مدار التاريخ البشري على الأرض، وما يسعى إليه البشر -بطبعهم- إلى البناء والتطوير والتحديث واكتشاف كل ما هو جديد، والفطرة الدافعة لهذا أصلًا هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها ليحققوا العبادة والخلافة في الأرض، ولكنهم طغوا واستغنوا.

وثمَّةُ مقياس للحضارة متعلق بالتصور الإسلامي، ونمط فكر المسلم، وهو الذي يُحدد هل تلك الحضارة ناجحة أم فاشلة، ألا وهو هل حققت تلك الحضارة ما أمر الله به أصحابها؟ أم أنهم أخلدوا إلى الأرض وركضوا خلف أهوائهم متبعين خُطوات الشيطان؟ هذا هو المعيار.

فعندما نتحدث عن الحضارات "الكُبرى" كالحضارة الفرعونية، والإغريقية، والرومانية، والبابلية، وغيرها، ننظر إلى من كانت تعبد؟ وبحكم من كانت تحكم؟ نعم هم حققوا إنجازات عبقرية، في مختلف النواحي، ولكن ليس هذا كافيًا -في ميزان الدينا والآخرة- لنقول أن تلك الحضارات كانت ناجحة، بل نقول أنها على الرغم من كل ما وصلت إليه إنما هو استزادة من متاع الدنيا فقط، ويقولها المسلم بكل ثقة أن تلك

الحضارات هي حضارات فاشلة بامتياز، فلا هي عبدت ربها، ولا هي حكمت بشرعه، ولا هي خضعت لحكمه، فما الفائدة من تحقيق بعض الصالحات تحت مظلة الكفر؟

إن الأساس الذي تنبني عليه الحضارة الناجحة هو أساس العقيدة، حضارة تُبنى على لا إله إلا الله، أفرادها يُؤمنون بالله ويُقرُّون بكل ما أنزل، لا يردون من أمره شيئًا، يعبدونه حق العبادة، يحكمون فيما بينهم بحكم الله، لا يجعلون أنفسهم لله ندًا.

إنها حضارة تُبنى على أفكار وأخلاق لا إله إلا الله، تُستغل فيها الموارد فيما يُرضى الله، وتُسخر لتعبيد الناس لربهم، لا لأهوائهم أو أهواء طائفة طغت واستعلت على من دونها.

إنها حضارةٌ تُنشئُ بين الناس روابط اجتماعية على ضوء لا إله إلَّا الله بكل ما تحمل من أوامر وتوجيهات، حضارة لا يعلوا فيها أحدٌ على غيره، الكل سواسية، لا تفاضل بين أفرادها إلا بالتقوى، التي عند الله علمُها، حضارة يقوم كل شيءٍ فيها على التذكير بالله، وأنه هو الملك، وأن إليه المرد، وأنه بيده الثواب والعقاب، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصيته، أحقًّا تُنبَذُ حضارة كهذه إلّا من أتباع الشيطان؟

إذن فليس مفهوم الحضارة في التصور الإسلامي مقتصرًا على تحقيق التقدم العلمي، والتقني، والترف ونحو ذلك، وإن كان ذلك يتأتى بالضرورة، إلا أنه ليس هدفًا لذاته، وإنما هدف الحضارة هو تعبيد الناس لربهم والفصل بينهم بأحكامه إلى أن نلقاه.

سابعًا: المقتضى التعبيري

تقتضى لا إله إلَّا الله منّا أن تكون داخلة في كل مجالات الرأي والتعبير، وأن يتم استخدام هذه المجالات في مصلحة الدعوة؛ دعوة الناس إلى ربهم.

فوسائل الإعلام التي تبث الأخبار للناس، والمشتغلين بالفن وغيرهم، ما هم الآن إلّا سحرة فرعون، يزينون للناس أعماله البشعة على أنها تصب في مصلحتهم، حتى وإن كانت بالقتل والتعذيب والتشريد، وكان الأصل في هذه الأدوات أن تكون داعية إلى الله جل وعلا في كل شيءٍ تُقدمه للناس.

إذ أن التعبير عن الأفكار وما يجول في الخاطر هو أمرٌ فطري، ولكن إذا تُرك دون ضابط، ودون هدف أسمى، آل الحال إلى ما نحن عليه من تخبطٍ، وضياعٍ، واستغراق في اللهو والمجون.

فالمسلم لا يقول الفن للفن، ولا الفن للحياة، ولا الفن للطاغوت، كما هو لسا حال البعض، بل يعرف أن هذا الفن وغيره من أدوات التعبير، إنما هي وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله، فليس يهدف إلى عرض

أفكار تنافي الشرع، أو تعاديه كما نرى، وإنما هدفه هو استخدام أدوات التعبير تلك فيما يرضاه الله سبحانه وتعالى، أن يعبده الخلق ولا يُشركون به شيئًا.

إن وسائل التعبير لها دور عظيمٌ في تشكيل وعي الأفراد والمجتمعات، فإذا كان المُشكِّل للوعي هو منهج غير المنهج الرباني النقي، انتشر فيه -وبالضرورة- كل المفاسد التي يُمكن أن نتصورها وصولًا إلى الشرك بالله وعبادة الشيطان.

وقد أحسن عُبّاد الهوى استخدام وسائل التعبير في عرض أفكارهم الفاسدة، التي تنبذها الفطرة النقية، فعمدوا إلى أنشاء مجتمع جاهلي، ينتشل المسلمين انتشالًا من دينهم، وقد وصلنا -باستخدامهم لتلك الوسائل- إلى أسوء فترة مرت على البشرية في تاريخها من يوم خلق آدم، انتكاس غريب للفطرة، مسوخ يحيون بلا هدف، تشبعوا بأفكار إلحادية، شاذة عن الفطرة التي خلقنا الله عليها.

وكان البديل -المفترض- عن ذلك أن نقوم نحن المسلمون بالسيطرة على تلك الوسائل، واحتكارها من أصحاب الأهواء الفاسدة، ونعرض الصورة النقية الواضحة البديلة عن كل الأشياء التي عرضوها، نعرض المنهج الرباني الذي لا كذب فيه ولا غش ولا خداع، ندعوا الناس إلى دعوة الحق، نحضهم على الجهاد في سبيل الله، ورفع راية الدين عاليًا، وعظ الناس وتذكيرهم بربهم وباليوم الآخر، بالجنة والنار.

وبإقصاء المسلمين من الساحة الدعوية العالمية، عمد الكفار إلى استئصال شأفة المسلمين في كل حدب وصوب، وتصويرهم في صورة وحوش مفترسة، لو أُطلقوا على العالمين لقتلوهم بلا رحمة، صورنا على أننا مجموعة من الهمج المسلحين لا هم لنا إلى قطع الرقاب وفقط!

انظر إلى حالنا لما حُجبنا ومُنعنا من أدوات التعبير، صرنا نُقتل في كل بلد ولا يُسمع لنا صوت، بل والأدهى أنه لو سُمع صوت، لكان بالصورة التي أرادها القاتل، الصورة التي خطط لها الكفار.

انظر إلى الحركات الإسلامية التي نشأت، واستأُصِلت في صمتٍ لفقدهم القدرة على التعبير، كيف يستميلون الناس إليهم، ويبنون قاعدتهم الشعبية دون إعلام؟

وأظن أن بهذا يتضح جليًا أهمية أن يكون للأمة الإسلامية إعلامٌ مستقل خاضع لشريعة الرحمن وحده، يقوم دوره على الدعوة في المقام الأول، وتثبيت الناس على دينهم وحضهم على الجهاد، ودفع ما يُثار من الشُبه عن الإسلام، والتحذير من أعداء الإسلام، والتوعية بالوقائع المعاصرة من منظور إسلامي.

وكيف لا يكون لنا إعلامنا الخاص، وقد كان للرسولِ ﷺ حسانَ بن ثابت، الذي قال له النبي ﷺ: "اهجهم وروح الْقُدس مَعَك" وَقَالَ فِي حَدِيث آخر "إِن الله مؤيد حسان بِروح الْقُدس مَا نافح عَن نبيه" أليس حض النبي حسان على هجاء من آذوه هو إعلامًا بالدفاع عن دولة الإسلام.

الانحرافات التي طرأت على لا إله إلا اللهٰ: -

ظلت لا إله إلَّا الله محافظة على مفهومها، مطبقةٌ مقتضياتها في الجيل الأول الذي رباه النبي ﷺ، وما أن بدأ هذا الجيل ينقرض حتى بدأت الانحرافات تطرأ على لا إله إلا الله، من القدرية والخوارج والشيعة وغيرهم، إلا أن أخطر ما ظهر هو الفكر الإرجائي.

إفراغ الدين من مضمونه، وإهمال مقتضياته كأنها مجرد كمال، من شاء أتاه ومن أبى تركه، وهو مسلمٌ موحدٌ إيمانه كجبريل عليه السلام (عند غُلاتِهم)!

يقولون أن الإيمان هو التصديق القلبي، ولا حاجة للعمل ولا دخول له في الإيمان، إذن وكيف كلفنا اللهُ بدعوة الناس؟ أليست الدعوة عملًا يحتاج إلى بذل الكثير في سبيله؟ ألا نحتاج الجهاد لإقامة دين الله وشرعه؟ ألسنا نحتاج إلى إعداد القوة وعمارة الأرض؟ في الحقيقة، إنّ الإسلام كله عمل.

وما جاءت دعوات الإرجاء إلا من كتب الفلسفة والمنطق، التي دفعتهم إلى حصر مُسمى الدين في نطاق ضيق محدود لا يزيد ولا ينقص، سبحان الله! يَزِنُون دين الله بعقول الملاحدة! أوليس مردّ الأمر كله لله! أوليس الكتّاب والسنة هما مرجعيتنا!

وفي الحقيقة إن الفكر الإرجائي هو بمثابة "الأفيون" يُخدّر المسلمين ويُقعدهم عن العمل، وكيف إذاً لا يكون دينًا مفضلًا للملوك وهو يكف عنهم سطوة العلماء، ويمنعهم من الإنكار عليه، إذ أنه ما دام مُصدقًا بالله شاهدًا له بالوحدانية، فليفعل ما يشاء ولا تثريب عليه.

وهو كذلك يُعطي رؤية سقيمة للعُصاة من المؤمنين والغافلين والمقصرين أنهم على الجادة وإلى طريق الجنة سائرون ولا خوف عليهم ولا خطر النار يحاوطهم، فهم مُصدقون بالله، ويقولون لا إله إلا الله!

وهذا الإفراغ لمفهوم لا إله إلَّا الله من العمل، يُسقط جُل مقتضياتها، فلا حاجة للتشريع والحكم بما أنزل الله، لا حاجة للجد في العبادة، لا حاجة لدعوة الناس لربهم، لا حاجة لبذل أي عمل، فقط على أقصى تقدير عندهم قُل لا إله إلَّا الله ولا تعمل ولو عملٍ واحدة من أعمال الإسلام، لا تُصلى صلاةً واحدة، وأنت في الجنة لا تقلق، وعجبًا لمن يُؤجِّر عقله لهؤلاء!

وبالتأكيد أدى هذا إلى البعد التام عن منهج الله، فلا حدّ إذًا يمنعنا من اتباع الهوى، وكثرت أفعال الجاهلية، حتى استقى الناس أفكارهم من الجاهليين أنفسهم، وأباحوا لأنفسهم الحكم بقوانين وضعية مُقدمين إياها على شرع الله في كل المجالات تقريبًا، أحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحل، داعين في كل فرصة تسنح لهم إلى مزيد من التحرر من دين الله، إلى مزيد من الحياة الجاهلية، الحياة البهيمية التي لا ضابط فيها، ولا رادع لانحراف الفطرة، وقد صدق فيهم قول سُفيان الثوري رحمه الله: "تركت المرجئة الإسلام أرق من ثوب سابري".

وجاء كذلك الاستبداد السياسي الذي ذاق الناسُ منه الويلات، من فرض الضرائب والإتاوات، وانتزاع الخيرات واحتكارها، والطغيان في الأرض، وتعذيب العلماء الصادعين وتقتيلهم، مبتعدين كل البعد عن العدل والقسط الذي أمر الله تعالى به.

وهذا الاستبداد خوّف الناس من مجرد التفكير في العمل السياسي، لا دخل لهم بحال الخاصة الذين هم "علية القوم"، وبدأت تتفكك الروابط الاجتماعية، ويزداد الفقير فقرًا لحساب الغني الذي يزداد غنىً وانحصر الدين أكثر في الشعائر التعبدية.

وبالحديث عن حصر الدين في الشعائر، ننتقل إلى الصوفية التي صورت للناس الدين على أنه مجموعة من الشعائر وأعمال القلوب التي لا شيء بعدها، هي فقط وكفى!

فكرٌ لا دخل له بالواقع، بل وانتشرت فيه البدع التي هي أشبه بالمسكّنات، من الرقص، والحضرات، بل وحتى الشرك وعبادة الأولياء، والأضرحة، وغير ذلك مما عمت به البلوى.

والحقيقة أن كلًّا من الصوفية والإرجاء مناسبان تمامًا لحال الاستبداد السياسي، إذ أن المستبدين بالسلطة وبخيرات الأمة يحتاجون إلى الفكر الإرجائي والصوفي "البدعي" لإلهاء الناس عن الواقع وصرفهم إلى جانب الشعائر التعبدية فقط، ولا يتسع المقام لإطالة الحديث عن الإرجاء والصوفية.

ويومًا بعد يوم، تزداد الانحرافات في لا إله إلا الله، كلما بعد المسلمون عن دين ربهم، ومع استمرار الغزو الفكري الذي يقوم به الغرب الكافر، مزينين للناس حب الدنيا، مرغبين إياهم عن الآخرة مبعدين لهم عنها، كادت المقتضى التعبدي هو الآخر أن يزول، فالعبادات للناس صارت كالتقاليد التي وجدوا عليها أجدادهم، عبادة خالية من الروح، لا معنى لها عند الكثير سوى أنها ما وجد عليه أباءه.

لا بد لهذه الأمة من موقظٍ يوقظها من سباتها الذي وقعت فيه، إلى متى يستمر تكالب الأعداء عليها وهي صامتة، تُتَخطّف من كل حدب وصوب، ولا حراك لها، إلى متى تظل فكرة الدين محصورةً عندها في

إطارٍ ضيقٍ منعزلٍ عن الواقع، لا علاقة له بالهدف من وجود الإنسان، لا هو حال يقود للخلافة ولا للتمكين والعمارة.

إن هذه الامة لن تستيقظ ولن تقوم لها قائمة ما دامت بعدية عن شرع ربها، جاهلة بما أمر وما نهى، ترجع في جُلِّ أمورها إلى غير الهدي الرباني، أمةٌ استقت من كل مشارب الجاهلية ما تركت منها شيئًا، والسبيل لإيقاظ هذه الأمة النائمة، هو التعريف بمقتضيات لا إله إلَّا الله التي قالوها وما عملوا بها -ولو عملوا لأفلحوا-، والقضاء على كل انحرافٍ طرأ على شهادة التوحيد، والحكم بين الناس بشريعة الملك لا غيرها من الجاهليات التي شرعها البشر معاندين حكم ربهم.

قال رسول الله ﷺ: "لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ" وها هي مقتضيات لا إله إلَّا الله انقضت واحدة تلو الأخرى، وكادت الصلاة أن تنقضي كذلك.

نواقض لا إله إلا الله

عمد الفكر الإرجائي على تفريغ لا إله إلَّا الله من مضمونها كما قُلنا، ونشأ عن ذلك عدم الاكتراث بنواقض لا إله إلَّا الله وإنكارها، فكل من يقول لا إله إلَّا الله عندهم، لا ينتقض إيمانه وإن سب الله، ورسوله، وإن ترك الحكم بما أنزل الله، وإن مزق المصحف، إلى غير ذلك من النواقض التي يقفون فيها فقط على اعتقاد القلب.

نواقض لا إله إلَّا الله تُخرج المرء من الدين كُليًّا إذا وقع في أحدها، وقد كثر وقوع الناس فيها هذه الأيام، وهم يحسبون أنهم مازالوا على الإسلام، فترى سب الدين، والاستهزاء بأحكام الله كاللحية والنقاب والكثير غير ذلك، يفعله الناس يومياً بلا أدنى مشكلة لديهم، لا يعلمون أن هذا يُخرجهم من دين الله بلا أدنى ريب.

وفي الواقع، إن نواقض لا إله إلَّا الله لا يُمكن حصرها في عدد معين، ولكن يُمكن القول أن الإخلال بجانب الإيمان والعبادة والتشريع، هو الأصل لأي ناقضٍ من نواقض لا إله إلا الله، كالسجود لوثن، ودعاء غير الله، والتحليل والتحريم من دون الله، ووضع القوانين العامة المخالفة للشريعة، وترك الحكم بما أنزل الله، ورد الأمر إلى أراء البشر، والتحاكم إلى الطاغوت راضياً بحكمه مقدما له على حكم الله.

وبالنظر إلى نواقض جانب التشريع، فها نحن نرى بلاد المسلمين قد انسلخت من شريعة ربها، وحكمت الشرائع الجاهلية، كالديموقراطية، التي هي حكم الشعب للشعب، والشعب هو السيد، وهذه ومنازعة فاجرة

صريحة لله عز وجل في حكمه وسيادته على خلقه، وإن قيل أن الشرع الإسلامي مصدر من مصادر التشريع، فيعني وجود مصادر أخرى جاهلية تُستقى منها القوانين، وأن تحكيم الشرع أصلًا يكون خاضعًا لرغبة البشر، فلو أراد الغالبية حكم الله حكمنا به، وإن نبذوه نبذناه، أيُّ فجورٍ وتعدٍ هذا!

وكذا ينقض الإسلام عقد الولاء والبراء المطلق على غير العقيدة، فدين القومية الذي نراه حولنا من كل جانب، يعقدون فيه الولاء والبراء على سُكان قطعة أرضٍ معينة، لا عناية عندهم بدين هؤلاء، ولا عقيدتهم في ربهم، فقط هم قومنا ونحن قومهم لأننا تساكنّا نفس الأرض، فتراه يُقدم الكافر من قومه على المسلم من قوم غيره، ويوالي الكافر ويبرأ من المسلم، انتصارًا لقوميته الفاسدة.

لذلك نقول أن كل نعرات الجاهلية لعقد الولاء والبراء على غير دين الله، هي دعاوى فاسدة مخالفة لدين الإسلام، تجتال الناس من دينهم وهم لا يشعرون.

واجب الصحوة الإسلامية

إن الواجب على الصحوة الإسلامية -في ضوء ما ذكرنا- هو البدء بتوعية الناس بلا إله إلّا الله وبيان مقتضيات تلك الكلمة التي هي عهد قطعوه على أنفسهم لرب العالمين.

فكل مشكلات الأمة، اقتصاديًا واجتماعيًا وعسكريًا وتقنيًا وأخلاقيًا وكل أمر من أمور الدنيا والآخرة مرد الفلاح فيه إلى العمل بمقتضى لا إله إلا الله، وإبراز الصحوة للتصور الإسلامي الصحيح للكون والواقع من كل النواحي في مختلف المجالات، هو الطريق لبناء دولة الإسلام من جديد، والله أعلم.

المستفاد من الكتاب

- بيان معنى لا إله إلا الله.
- التشريع حقٌ لله لا ينازعه في أحد.
- لا إله إلّا الله شاملة لكل نواحي الحياة، لا يخرج عنها شيء.
- الأمة الإسلامية لا تقوم إلا بالعمل بمقتضيات لا إله إلّا الله وتحقيقها.
- الحكم ونمط الحياة، إما أن يكون إسلاميًا وإما أن يكون جاهليًا، لا ثالث لهما.
- أول ما يجب البدء به هو التوعية بلا إله إلّا الله ومقتضياتها، ففيها الحل لكل الانحرافات.

والحمد لله رب العالمين